

الشعر الأرمنى عبر العصور

(بمناسبة ظهور ترجمة عربية له)

من المستحيل أن ينتزع الإنسان من وطنه . وإذا حدث فإن الوطن ينتقل إلى أعماقه ، ويسكن فيه ، ويظل مسيطرا على أفكاره ومشاعره . وعند اللحظة المناسبة ، لا يلبث أن يظهر ويستعلن .. وهذا ما حدث عندما أقدم د. فاروجان كازانجيان الأرمنى الأصل (دكتوراه فى الأدب الانجليزى) على اختيار وترجمة مجموعة من قصائد الشعراء الأرمين ، فى كتاب ضخيم (663 صفحة) بعنوان (مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور) ، قدم له الشاعر فاروق شوشه ، وساعد على صياغته الشعرية ومراجعته اللغوية الشاعر محمد ابراهيم أبو سنه .

أول ما يلفت النظر فى الكتاب أنه يبدأ بشعراء العصر الحديث ، متدرجا للخلف إلى أقدم عصور الشعر الأرمنى . وتلك ميزة نفتقدها فى معظم كتب المختارات ، إن لم يكن كلها ، حيث جرت العادة بالخضوع للترتيب التاريخى ، بدعا من أقدم العصور حتى أحدثها ، الأمر الذى قد يصرف القارئ عنها ، نظرا لصعوبة البدايات ، وغربة الموضوعات ، وابتعاد العصر ..

أما مفاجأة الكتاب فهى قصائده : تلك التى تتنوع تنوعا كبيرا بين غنائيات عذبة صافية ، ووطنيات مكسورة جريئة ، ونظرات إنسانية عالية ، وابتهاالات دينية عميقة .. وعلى الرغم من قيام حجاب الترجمة ، فإن اللغة التى قدمت فيها القصائد قد اقتربت بها كثيرا من لغة الشعر العربى بكل مقوماته ، ماعدا الوزن العروضى بالطبع .

وكما تمثل القصائد مجموعة من التجارب الإنسانية الصادقة ، فإن معظمها يقدم تشكيلات شعرية متميزة ، استخدم فيها الشعراء كل مهاراتهم من الرصد ، والوصف ، والتحليل ، واستطاعوا أن يمزجوا عناصر الكون والطبيعة بأحوال النفس وحركة المشاعر . ولم تمنع بساطة المعانى والأساليب من النفاذ إلى الجوهر الفلسفى الذى كان يتم تطويعه بمنتهى العفوية لى يخدم البناء الشعرى ، ويسهم فى قوة تأثيره .

لقد أراد د. كازانجيان أن يكون الكتاب سجلا للشعر الأرمنى ، قاصدا من وراء ذلك إلى أن يعرف قراء العربية الشعب الأرمنى ، الذى يعيش بيننا - جماعات وأفراد - فى جو ودى حميم . ولاشك أنه قد أحسن صنعا بهذا العمل الهام . فقد كنا نعرف الأرمنى سلوكا ومعاملة ، ولم نكن نعرف الكثير عنهم مشاعر وأحاسيس .

وهذا الكتاب يضع أيدينا مباشرة على تلك الطاقة النفسية العالية التى يتمتع بها هذا الشعب ، الذى عانى كثيرا ، وتغرب كثيرا ، ولكنه لم يقتل لحظة واحدة من وطنه وترابه .

إن خير مدخل لمعرفة الشعوب هو قراءة أشعارها ، التى يها تغنى ، وفيها تبكى .. وفى تقديرى أن تلك المختارات - التى استمدتها المترجم من خمسة وعشرين شاعرا ارمنيا - تمثل نقطة ضوء ساطعة فى سماء الحوار بين الشعوب ، والتعارف بين الثقافات .

وإننى أدعو زملائى الشعراء إلى قراءة قصيدة الشاعر الأرمنى ب . سوفاج (ت 1971) بعنوان (اقتراح للحاسبات ..) والتى يقول فيها:

حمم الأشعة الكونية

التي تتدفق إلى عيوننا

فتبرق مذهشة

حينما تبصر فجأة عيوننا أخرى وتسحرها

هل هذا الإشعاع المتبادل

بين الأعين العاشقة

مفيد للقلوب

أم ضار بها ؟

وقصيدته بعنوان (الشعراء) التي يقول فيها:

يكون كالأنفاق المنتحبة تحت الأرض

وهم أحياناً يضحكون

لضحكاتهم رنين العملة الذهبية

التي تثرى العالم

أما هم فيظلون فقراء

لا يقدرّون على العيش

بدون خبز ولأ ماء

ولكن فى الوقت ذاته

لما يقدر ون على العيش

بالخبز والماء وحدهما..

أما قصيدته (الأعور) فيقول فيها :

إننى أنظر إلى الحياة بعين واحدة

أما عيني الأخرى فهى من زجاج

بعيني الواحدة تلك أرى الكثير

غير أننى أبصر أكثر بعيني العمياء

لأننى بعيني السليمة أرى

بينما بالعين العمياء دائماً أحلم..

وفى قصيدته (أغنية للموتى) يقول الشاعر ي. تشارنتس (ت 1937) :

إن كان النسيان قدر الموتى

فالمجد دائماً أبدا

لهؤلاء الذى خلفوا فى الحياة وهج الذكريات..

وفى قصيدة (الضوء) للشاعر ت. فاروجان (ت 1915) نقراً :

المضوء مرمر المذاجم السماوية

في حضنه تصوير الحكمة أغنية

يرشفها الشعراء في الليل من كئوس النجوم

ليصدحوا بها للبشر في النهار..

أما قصيدة (جواب جديد) للشاعر ج. برزنجاتسي (ت 1330) فيأتي في مقطع منها:

إن روجي تواقه دوما للإنصات إلى كلام الحكماء

وجسدى معلق بالشهوات

لأنه ابن هذه الدنيا

وأنا حائر بين الطهر والشهوة

كشمعة تحترق بالنار..

وهنا .. لابد أن أتوقف عند تلك المقتطفات السريعة من نماذج الشعر الأرمنى الجميل ، والذى يقدم فى هذه الصورة لأول مرة باللغة العربية . ومن خلاله نتعرف على عالم جديد بالنسبة لنا ، لكننى على ثقة من أنه سريع الوصول إلى النفس ، كما أنه يمثل إضافة حقيقية إلى ثقافة شعرائنا المعاصرين .